

المحاضرة السادسة: نظرية النمو عند أريكسون

تمهيد:

بنى إريك إريكسون نظريته على أسس التحليل النفسي لفرويد، واصفًا أعماله بأنها "الصخرة التي يقوم عليها كل تقدم في فهم الشخصية". قدم إريكسون نموذجًا تحليليًا للنمو النفسي الاجتماعي يوضح المراحل الثمانية التي يمر بها الإنسان خلال حياته، مع التركيز على التفاعل بين العوامل النفسية والاجتماعية في تكوين الشخصية السوية.

المرحلة الأولى: الثقة الأساسية مقابل الشك (من الولادة حتى السنة الأولى): بعد حياة منتظمة وآمنة داخل الرحم، يواجه الطفل العالم الخارجي لأول مرة عند الولادة، فتتشكل لديه مشاعر متناقضة بين الثقة والشك. تُعتبر حاسة الثقة الأساسية مقابل الشك نقطة محورية في نمو الطفل النفسي الاجتماعي. يتطلب تكوين الثقة شعور الطفل بالراحة الجسدية وتعرضه المحدود للخوف وعدم اليقين. وعندما تتوفر هذه الظروف، يصبح الطفل قادرًا على استقبال الخبرات الجديدة والانفتاح عليها برضا، مما يدعم نموه النفسي. أما الشك فينشأ نتيجة الخبرات الجسدية والنفسية غير المرضية، ويؤدي إلى الخوف من المواقف المستقبلية. تؤمن الخبرات الجسدية الأساس لحالة من الثقة النفسية، وتشكل أول تجربة اجتماعية للطفل، حيث تحدد نمط تعامله في هذه المرحلة. تعتمد العلاقات الاجتماعية في هذه المرحلة على الأم أو القائم بالرعاية، إذ يشكل حبها ودفء تواصلها واهتمامها أول اتصال اجتماعي حقيقي، مما يعزز شعور الطفل بالأمان والراحة النفسية. تنقسم هذه المرحلة إلى مرحلتين:

1 **المرحلة النفسية-الحسية :** يعتمد الطفل على الأم لتلبية احتياجاته الجسدية، مثل التغذية والحماية من البرد أو الملل. ومع نمو الحواس والقدرات الحركية، يزداد شعوره بالاعتماد على ذاته ورضاه عن نموه، مع استمرار تشجيع الأم ورعايتها.

2 **المرحلة العضوية-السنية :** يظهر الطفل خلال هذه المرحلة أول الأسنان، ويبدأ التحكم في عضلات الفم بشكل أكبر، مما يعكس تطور الاعتماد على الذات وتنمية الحواس الحركية، مع احتمالية ظهور بعض حالات الشك نتيجة انسحاب الأم أو توتر العلاقة.

تؤكد الدراسات أن الثقة التي ينشأها الطفل في هذه المرحلة تشكل أساس الشخصية السوية، بينما يؤدي الحرمان من الحب أو الرعاية إلى اضطرابات نفسية عميقة لاحقًا، تشمل صعوبة في تكوين الثقة بالآخرين والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع.

المرحلة الثانية: الاستقلال مقابل الشك والخجل (من السنة الثانية حتى الثالثة): مع ترسيخ الثقة الأساسية

يبدأ الطفل في هذه المرحلة تطوير إحساس بالاستقلال الذاتي، حيث يسعى لتأكيد ذاته كإنسان مستقل قادر على اتخاذ القرارات واستخدام العقل والإرادة. يبرز ولع الطفل بالاستطلاع، ويصبح أقل اعتمادًا على الآخرين وأكثر قدرة على الفهم الذاتي. تنمية هذا الإحساس تتطلب توفير فرص الاختيار الحر للطفل في أمور بسيطة مثل الجلوس أو الوقوف، قبول أو رفض الطعام، وغيرها من الأنشطة اليومية. ويعتبر تدريب الطفل على ضبط الإخراج مثالًا أساسيًا لمشكلات هذه المرحلة، إذ يتيح التحكم التدريجي بالنوازع المتناقضة بين الإمساك والإفراج، ويعزز قدرة الطفل على الاعتماد على ذاته. ينبغي أن يسلك الراشدون حزمًا مع التسامح، بحيث لا يشعر الطفل بالحرج أو التشكيك في قيمته، مع منح الفرصة لتجربة الاستقلال بطريقة آمنة، مما يدعم بناء شخصية متزنة ومستقلة.

المرحلة الثالثة: المبادأة مقابل الشعور بالذنب (من 4 إلى 5 سنوات): تتمحور هذه المرحلة حول تنمية

القدرة على المبادأة، إذ يبدأ الطفل في استكشاف البيئة وممارسة التحكم في الذات والبيئة المحيطة. النجاح في المبادأة يعزز شعور الطفل بالزهو والثقة بالنفس، بينما يؤدي الفشل إلى تنامي شعور بالذنب. يتحسن في هذه المرحلة التحكم في المهارات الحركية الأساسية مثل المشي والجري والتسلق، كما يزداد استخدام اللغة وقدرة الطفل على التواصل. يبدأ تكوين الأنا الأعلى، حيث يمثل الطفل لتوجيهات الأبوين داخليًا، فيصبح قادرًا على مراقبة نفسه وتقييم أفعاله وفقًا للمعايير الأخلاقية المستمدة من الأسرة والمجتمع.

المرحلة الرابعة: الاجتهاد مقابل الشعور بالنقص (من 6 سنوات وحتى 11-12 سنة): تتمثل هذه

المرحلة في سعي الطفل للتمييز بين أقرانه، وتوجيه جهوده نحو السيطرة على المشكلات الاجتماعية المحيطة به. النجاح في هذه المرحلة يعزز شعوره بالجداة والكفاءة، بينما يسبب الفشل إحساسًا بالنقص. يتباطأ النمو الجسمي نسبيًا، مع استعداد الجسم للنمو السريع في المرحلة التالية. يظهر التمايز بين الجنسين في أنماط اللعب، ويبدأ الطفل بالاعتماد الواقعي على الوالدين في بعض المواقف، مع الميل للتقرب منهم عند الحاجة، لكنه يبدأ تدريجيًا في الانفصال عن حياته الأسرية.

المرحلة الخامسة: الهوية مقابل انتشار الهوية (المراهقة، 11-20 سنة): تعتبر مرحلة المراهقة مرحلة مركزية

في تكوين الشخصية، إذ يواجه الفرد نموًا جسديًا مفاجئًا وتغيرات هرمونية، مما يولد اضطرابًا في إدراك الذات. يسأل المراهق عن هويته، دوره في المجتمع، قدراته، وإمكاناته على النجاح. الهوية يمكن أن تتجلى إيجابيًا في مسؤولية الفرد تجاه

مجتمعه، أو سلباً من خلال الانحراف عن المجتمع كوسيلة لاستعادة السيطرة على الذات. الصراع نحو تأكيد الهوية يساعد المراهق على الانتقال من عالم الطفولة إلى عالم البالغين، ويشكل أساساً لتطوير استقلالية مطلقة وثقة بالنفس.

المرحلة السادسة: الألفة مقابل العزلة (الشباب المبكر): تتسم هذه المرحلة بالحاجة إلى إقامة علاقات ألفة مع شريك الجنس الآخر، والتي تصل ذروتها في الزواج. الانفصال عن الأسرة الأصلية ضروري لتكوين أسرة جديدة، إذ يتحقق النمو النفسي والاجتماعي من خلال القدرة على العطاء والالتزام بالشريك والجيل الجديد. تتحول مشاكل اختيار المهنة والشريك إلى التزام حقيقي بالتطبيق في الواقع الاجتماعي، مما يشكل انتقالاً من مرحلة الثورة إلى مرحلة الإنجاز والتكيف النسي مع الواقع.

المرحلة السابعة: الإنتاج مقابل الانكماش: يتمحور هذا الدور حول تأسيس وحدة أسرية جديدة، وبناء أساس للنمو للأجيال القادمة. يواجه الفرد تحديات أوسع تشمل البحث عن القضايا التي تمنح حياته معنى أعمق، وقد يلجأ إلى الدين أو الفلسفة لتوجيه نشاطه الاجتماعي والإبداعي. العطاء في هذه المرحلة يكون نابعا من الذات وليس مفروضاً، ويعكس القدرة على تحويل الخبرات السابقة إلى إنتاج جديد يحمل بصمته الشخصية.

المرحلة الثامنة: التكامل مقابل اليأس (كبار السن): تمثل هذه المرحلة نهاية دورة الحياة، حيث تبدأ طاقة الفرد الإنتاجية بالتراجع، لكنه يمتلك رؤية متكاملة لحياته ويحقق شعوراً بالتكامل والثقة بالنفس. هذا الشعور يتيح للفرد مواجهة الموت بطمأنينة، ويولد الحكمة وفهماً شاملاً لدور الفرد في دورة الحياة.